المنهجُ التَّرتيبيُّ والمنهجُ الموضوعيُّ في تفسيرِ القرآنِ الكريمِ

الشيخ الدكتور هاشم ابو خمسين
جامعة المصطفى - قم - ايران الاسلامية

حمزة موسى إمام
جامعة المصطفى - قم - ايران الاسلامية

فحوى البحث

يعرض البحث لمنهجين من مناهج التفسير حديثي العهد بهذا العلم الشريف الذي كرس له المسلمون الاوائل من العلماء جهدهم فبلغوا ما بلغوا.

يهدف البحث الى معرفة معالم وحدود كل من المنهجين مع فهم ما يمتاز به عن الاخر عن طريق المقارنة بينهما ومعرفة كيفية استعمالهما في فهم كتاب الله العزيز –على حد تعبير السيدين الباحثين.

وقد جاء البحث ضمن خمسة مباحث، اذ بدأ بالتعريف بكل من التفسيرين وناقش كل تعريف. وفي المبحث الثاني جاءت تقسيمات التفسيرين، ثم وجوه الاشتراك والافتراق بينهما، ثم عرض لنقد كل منهما. والملاحظ ان الباحثين اعتمدا آراء السيد الشهيد محمدباقر الصدر في اهم المواقف التي اتخذاها في البحث.

مقدمة

إن القرآن الكريم هو الكتاب المنزل من عند الله تعالى على نبيه المصطفى المختار ﷺ لهداية البشرية جمعاء، و هذا الكتاب فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان من أمور آخرته و دنياه، و يستطيع الكل بعد معرفة بعض المقدمات أن يفهم و يدرك بعض مراميه و مقاصده في ذلك، و لكن فهم دقائقه و مطالبه العميقة يجب أن يكون له العلماء المتخصصون لكي يبينوه و يخرجوه لنا و يرشدوننا إليه، فقد كان للعلماء منهجان وطريقان لاستخراج هذه المطالب والمعلومات العميقة و الدقيقة، و هما المنهج الذي يتتبع الآيات القرآنية حسب الترتيب الموجود في المصحف الشريف، و الآخر يتعلق بجمع كل الآيات التي تدور حول موضوع واحد ليعالجها، فيخرج بنتيجة نهائية منه.

والهدف من البحث: هو معرفة معالم وحدود كل من المنهجين مع فهم ما يتميز به الواحد عن الآخر عن طريق المقارنة بينهما، وكذلك معرفة كيفية استعمالهما في فهم كتاب الله العزيز.

والسؤال الاساس المطروح للبحث هو: كيف نستطيع التمييز بين منهجي التفسير الترتيبي والتفسير الموضوعي لكتاب الله تعالى؟. ما هي أهم الخصوصيات والمواصفات التي يمتاز بها كل من أسلوب التفسير الترتيبي والتفسير الموضوعي؟. هذا هو السؤال الذي سيحاول البحث الإجابة عنه بحول الله وقوته.

ويمتاز هذا البحث بكونه دراسة مقارنة بين هذين الأسلوبين. نسأل الله التوفيق و السداد، فإنه خير ناصر و معين.

المبحث الأول:

التعريف بالتفسير الترتيبي و الموضوعي

أولا: التفسير الترتيبي:

لقد عرف العلماء التفسير الترتيبي بتعريفات مختلفة، كما سموه بأسماء متنوعة؛ مثل الترتيبي و التجزيئي و الموضعي.

وأما تعريفه: فإن السيد الشهيد الصدر يقول فيه: (هو المنهج الذي يتناول المفسر فيه، ضمن إطار القرآن الكريم، آية فآية وفقا لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف)[1].

(١) الصدر، السيد محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص٩.

وقال آية الله مكارم الشيرازي:- في التفسير الترتيبي -تجري عملية بحث آيات القرآن الكريم بالترتيب و يتم توضيح مضمونها و ماهيتها...)[٢].

وقال الدكتور الرضائي فيه: (يعتمد المفسر في طريقة التفسير الترتيبي على تفسير آيات القرآن بطريقة ترتيبية حسب وجودها في المصحف أو حسب نزولها)[٣].

مناقشة التعريفات:

تشترك هذه التعريفات في أن هذا النوع من الأسلوب التفسيري يختص بكونه حسب الترتيب القرآني، إلا أن الترتيب القرآني على نحوين: الترتيب النزولي والترتيب الكتابي، فالسيد الشهيد أشار في تعريفه إلى الترتيب الموجود في المصحف، وما لم يكن كذلك فهو خارج عن تعريفه، مثل تفسير الآيات بحسب النزول، وأما الدكتور الرضائي فقد جعل في تعريفه كلا الترتيبين النزولي والكتابي موجودين، بينما الشيخ مكارم ذكر الترتيب مطلقا ولم يقيده بما هو موجود اليوم في المصحف أو غيره من الترتيبي النزولي. و التفسير على هذا الأسلوب قد يكون آيةً آيةً، وقد يكون بحسب مقاطع من الآيات، كما يمكن فهمه من هذه التعريفات الثلاثة وإن لم يذكروه صريحا نظرا إلى كونه من البديهيات التفسيرية لهذا الأسلوب.

ثانيا: التفسير الموضوعي:

وللتفسير الموضوعي تعريفات عدة، كما سموه بأسماء أخرى؛ مثل التوحيدي و التقطيعي.

وأمّا التعريف فقد أورد الشيخ مصطفى مسلم تعريفات مختلفة حوله، ثم اختار قول بعضهم بأنه: (علم يتناول القضايا بحسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر) لخلوه من التكرار و الإشارة إلى نوعين منه كما قسمه على التفسير الموضوعي الذي يجمع المفسر كل الآيات التي تتعلق بموضوع واحد، فيعالجه، و الموضوعي الذي يرتبط بتفسير سورة واحدة لاهتمامه بالغرض الذي تعرضت له تلك السورة[٤].

(٢) الشيرازي، ناصر مكارم (معاصر)، نفحات القرآن، ج١، ص٥.

(٣) الرضائي، محمد علي (معاصر)، دروس في المناهج والإتجاهات التفسيرية للقرآن، ص٣١٢.

(٤) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص١٦ مصطفى مسلم.

وقال فيه آية الله المحقق السبحاني: هو تفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات الواردة فيه بمعنى جمع الآيات الواردة في سور مختلفة حول موضوع واحد، ثمّ تفسيرها جميعاً والخروج بنتيجة واحدة)[٥].

وقال فيه السيد الشهيد: بأنه (الدراسة الموضوعية التي تطرح موضوعا من موضوعات الحياة العقائدية أو الإجتماعية أو الكونية، و تتجه إلى درسه و تقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده)[٦].

مناقشة التعريفات:

فهذه التعريفات الثلاثة لهذا النوع من التفسير تشير إلى أن له قسمين: فقد أشار التعريف الأول و الثاني إلى القسم الأول منه و هو الذي يأخذ المفسر موضوعه من داخل القرآن، ثم يجمع الآيات من سور مختلفة، فيخرج بنتيجة نهائية، و أشار التعريف الأخير إلى القسم الثاني الذي يكون باختيار موضوع من موضوعات الحياة خارج القرآن، ثم يأتي المفسر إلى النص القرآني ليرينا ما هو رأيه في هذا الموضوع المطروح.

و أما ما اختاره الشيخ مصطفي في تعريفه من جعل تفسير السورة الواحدة من سور القرآن تفسيرا موضوعياً لاهتمام المفسر بغرض مّا في تلك السورة فإن علماءنا الأعلام لم يعتبروا هذا من أقسام التفسير الموضوعي؛ بل عدُّوه كجزء من الترتيبي.

المقصود بالموضوعي:

و أمّا لفظ الموضوعي في الإصطلاح فقد أوردها السيد الشهيد على ثلاثة معان:

الأول: الموضوعي بمعنى اختيار قضية من الواقع الخارجي ثم الرجوع إلى القرآن الكريم بقصد التوحيد بين التجربة البشرية و بين القرآن الكريم لا بمعنى حمل تلك التجربة عليه بل بمعنى توحيدهما في سياق واحد و الخروج بالنتيجة الواحدة.

الثاني: الموضوعي بمعنى البحث عن الآيات المتفرقة في القرآن التي تشترك في موضوع واحد فيجمعها المفسر و يرتبها

(٥) السبحاني، جعفر (معاصر)، مفاهيم القرآن، ج١، ص٨.
(٦) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص١٧.

ترتيبا عضويا للوصول إلى النتيجة التي ترمي إليها الآيات.

الثالث: الموضوعي في مقابل التحيز؛ و هو بمعنى الأمانة و الاستقامة على جادَّة الحق و العدالة في البحث من دون ميل و تطرف إلى رأي مذهبي أو اعتقادي مسبق؛ بل بقصد البحث عن الحق و الحقيقة، أينما وجدها الباحث أخذ بها[٧].

المبحث الثاني:

تقسيمات التفسير الترتيبي و الموضوعي

إن لكل من الأسلوبين تقسيمات تختص به، وهو كالتالي:

الأول: التفسير الترتيبي:

إن التفسير الترتيبي له أقسام مختلفة- كما كان للموضوعي أيضا قسمان على أرض الواقع حاليا -والترتيبي قد يكون بحسب النزول القرآني كما نقل في كيفية جمع القرآن للإمام علي عليه السلام[٨]، و قد يكون من بداية الفاتحة إلى نهاية سورة الناس، و هو النوع الغالب أو المعروف في هذا الأسلوب. مثل تفسير التبيان للطوسي(ت ٤٦٠هـ) ومجمع البيان للطبرسي (ت ٥٤٨هـ). كما قد يكون بالعكس من ذلك يعني ان المفسر يبدأ تفسيره من سورة الناس وينتهي إلى الفاتحة. وتارة يخص تفسيره بالسورة الواحدة من سور القرآن أو أكثر من ذلك. مثل تفسير بوارق القهر في تفسير سورة الدهر و تفسير ست سور للملا حبيب الله الكاشاني (القرن الثالث عشر)، و تفسير العسس في تفسير سورة عبس للسيد مصطفى الشريعت الإصفهاني، و تارة أخرى يؤلف في بعض الآيات المرتبة، كتفسير آية الكرسي و غيرها.

الثاني: التفسير الموضوعي:

وأمّا الأسلوب الثاني فهو التفسير الموضوعي وقد قسموه على منهجين. الأول هو الذي يختار فيه المفسر الموضوع قبل الرجوع و النظر إلى الآيات ثم يأتي إلى القرآن و يرى ما رأيه و نظره فيه؟. و الثاني ان يأتي إلى النصوص القرآنية مباشرة من دون أي فكر ونظر خارج القرآن الكريم،

(٧) انظر: الحكيم، السيد محمد باقر، علوم القرآن، ص٣٤٥ -٣٤٦، و المدرسة القرآنية، ص٢٨ -٢٩.

(٨) انظر: معرفة، محمد هادي(١٤٢٨هـ)، التمهيد في علوم القرآن، ج١، ص٢٩٢.

فيجمع ما يرتبط بموضوع واحد، ثم يعالجه فيخرج بالنتيجة من دون النظر إلى شيء غير تلك الآيات.

يقول الشيخ مكارم الشيرازي في القسم الأول: (وهو إنهم يتناولون الموضوعات المختلفة كالموضوعات العقائدية -التوحيد و المعاد و... والموضوعات الأخلاقية -التقوى حسن الخلق و... و بعد ذكر بحوث فلسفية و كلامية أو أخلاقية يذكرون بعض الآيات القرآنية المرتبطة بعنوان الشاهد على ذلك).

و قال في الثاني: (و هو الذي يتم فيه قبل كل شيء جمع الآيات الواردة حول الموضوع من جميع أجزاء القرآن، و قبل أيِّ حكم أو إبداء نظر يتم جمع الآيات و تفسيرها مجتمعة، و بجمعها و ملاحظة العلاقة فيما بينها نحصل منها على الصورة الكاملة.

و هنا لا يملك المفسر شيئا من عنده مطلقا، و يسير كالظل خلف آيات القرآن، فيفهم كل شيء من القرآن، و يكون كل همه كشف محتوى الآيات، و إذا أراد الإستعانة بآراء الآخرين بل حتى الأحاديث فذلك في المرحلة الثانية و بصورة مستقلة)[9].

فقد ذهب السيد الشهيد إلى أفضلية القسم الأول، و بنى أسس هذا النوع من التفسير عليه، كما اختار الشيرازي القسم الثاني و اعتقد بأفضليته، بناء على بُعده من التفسير بالرأي و حمل الأفكار المسبقة على كتاب الله تعالى. و عليه فكل من القسمين جاز استعماله حسب ما يميل إليه المفسر ما لم يخالف الأصول والضوابط التفسيرية المقررة والمتفق عليها.

المبحث الثالث:

وجوه الإشتراك و الإفتراق بين المنهجين

إن تفسير كتاب الله الحكيم بحسب الإستقراء يكون على أحد الأسلوبين- التفسير الترتيبي والتفسير الموضوعي- ولا ثالث لهما إلى اليوم، ومن الطبيعي أن نجد وجوه الإشتراك بينهما؛ لأن كلا منهما الهدف منه هو بيان مراد ومقصود الله تبارك وتعالى من هذا الكتاب الذي لا يمسه إلا المطهرون، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمن اللازم وجود ما يمتاز به كل منهما عن الآخر. فهذا المبحث سيحاول دراسة

(٩) انظر: نفحات القرآن، ج١، ص١٦.

هذين الأمرين بالترتيب فيما يأتي.

الأول: وجوه الإشتراك:

إن كلا من المنهجين (الترتيبي والموضوعي) يشتركان في:

١. استعمال الأدوات الكاشفة عن النص و مدلولاته التي ترمي عملية التفسير الى الحصول عليها؛ مثل اللغة و الظهور و القرائن المتصلة والمنفصلة والنصوص المنقولة عن المعصومين عليهم السلام و أنواع العلوم القرآنية وغير ذلك مثل منهج تفسير القرآن بالقرآن، وإن كان التفسير الموضوعي عند السيد الشهيد يمتاز عن غيره من التفسير باستعمال التجربة البشرية و نظرية المفاهيم الإسلامية كأداة لفهم القرآن الكريم[١٠].

٢. الأسلوب الموضوعي دائما يحتاج إلى تحديد المدلولات التجزيئية من الآيات والتي تكون وظيفة للتفسير الترتيبي. وعليه؛ فالأسلوب الترتيبي يولِّد ويهيِّئ المواد الأساسية فيأخذها الأسلوب الموضوعي ويرتبها، فيخرج بنتيجته التي يرى الوصول إليها.

٣. إن الأسلوب الترتيبي قد يحصل على النتائج التي تشكل حقيقة قرآنية دالَّة على حقيقة من حقائق الحياة، فيكون في ذلك كالأسلوب الموضوعي.

نعم؛ إننا نفهم من وجه الإشتراك الأولى والثانية أن الموضوعي يدخل في مصاديق الترتيبي كما يدخل الترتيبي في مصاديق الموضوعي. وفي ذلك يقول السيد الشهيد: (ينبغي أن يكون واضحا أن الفصل بين الاتجاهين المذكورين ليس حديا على مستوى الواقع العملي و الممارسة التاريخية لعملية التفسير لأن الاتجاه الموضوعي بحاجة طبعا الى تحديد المدلولات التجزيئية في الآيات التي يريد التعامل معها ضمن اطار الموضوع الذي يتبناه. كما أن الاتجاه التجزيئي قد يعثر في اثناء الطريق بحقيقة قرآنية من حقائق الحياة الاخرى)[١١].

الثاني: وجوه الإفتراق:

(١٠) انظر: الأزرقي: منهج فهم القرآن عند الشهيد الصدر، ص٣٤٥.

(١١) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص١٣.

لهذين الأسلوبين من التفسير حقائق ومواصفات خاصة، توضح لنا وجوه التمايز والافتراق بينهما. ومن أهمها:

١. إن الفرق بين هذين الأسلوبين للتفسير (الترتيبي والموضوعي) واضح من خلال تعريفيهما، حيث إن الترتيبي أو التجزيئي يتعلق بترتيب سور القرآن أو سورة أو بعض آيات منه؛ بينما الموضوعي يرتبط بجمع كل الآيات التي تدور حول موضوع واحد لمعالجة قضية من القضايا داخل القرآن الكريم أو خارجه.

٢. إن الأسلوب الترتيبي هو أول أسلوب متبع في عملية التفسير وكتابته منذ القرن الأول، فقد كانت الأسس و الضوابط المقررة في هذا العلم إنما جُمعت و كُتبت من أجل هذا الأسلوب أولا، و أما الأسلوب الثاني؛ يعني التفسير الموضوعي، فلم يلتفت أحد إلى الكلام حوله إلا في أواخر القرن الرابع عشر الهجري على يد السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، وإن كانت بعض مباحثه وتطبيقاته موجودة ومتبعثرة في بعض المصنفات، لكن السيد امتاز بالبحث المستقل ووضع المعالم والضوابط الخاصة به.

٣. إن المفسر بالأسلوب الترتيبي يتماشى دائماً مع ترتيب المصحف أو ما يختاره من سورة واحدة و غير ذلك من الآيات، و يفسر آية آية أو قطعة قطعة منها تدريجا، ربما يُوَفَّق في إكماله -إن كان قصده انتاج تفسير كامل من بداية القرآن إلى نهايته -وقد لا يُوَفَّق إلا لتفسير بعض السور. ولكن المفسر بالتفسير الموضوعي، يجمع كل الآيات التي يتمحور حولها الموضوع الواحد، فيبذل جهده فيها حتى ينتهي إلى نتيجة متوخاة من ذلك.

٤. إن المفسر بالأسلوب الترتيبي يستفيد من الآية أو الآيات الأخرى أو الروايات و الأحاديث بعد استعمال اللغة و الأدب و التاريخ لفهم الآية أو المقطع الذي يريد تفسيره؛ بينما المفسر في القسم الثاني أغلب ما يعتمد عليه هو الآيات التي يجمعها، حيث إنه

يتتبَّع فيه منهج تفسير القرآن بالقرآن، فيقوم بترتيبها و تركيبها تركيبا عضويا للحصول على النتيجة النهائية، و أما غير الآيات فإنه يستعملها لكن ليست كركن أساسي في عمله هذا[١٢].

٥. و من ناحية الهدف لكل من الأسلوبين يقول السيد الشهيد: (فالهدف في كل خطوة من هذا التفسير (الترتيبي) فهم مدلول الآية التي يواجهها المفسر بكل الوسائل الممكنة؛ أي أن الهدف هدف تجزيئي، لانه يقف دائما عند حدود فهم هذا الجزء أو ذاك من النص القرآني، و لا يتجاوز ذلك غالبا)، و لكن في الموضوعي يقول: (ويستهدف التفسير التوحيدي الموضوعي من القيام بهذه الدراسات تحديد موقف نظري للقرآن الكريم و بالتالي للرسالة الاسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة او الكون)[١٣].

٦. إن المفسر بالأسلوب الترتيبي غالبا ما يبدأ من القرآن الكريم و ينتهي إليه؛ يعني إنه يتناول آية أو قطعة من الآيات من دون أي افتراضات مسبقة، ثم يحاول فهم هذه القطعة على حدة بواسطة اللفظ و القرائن الموجودة فيها، وليس للمفسر إلا الإصغاء و التفهم لما في الآية أو الآيات مورد بحثه؛ بينما في قسمي الأسلوب الموضوعي قد يبدأ المفسر من خارج النص، بحيث تكون له فرضياته المسبقة من بين الموضوعات المتداولة في واقع الحياة، و بعد ما حدد معالم موضوعه من الواقع الخارجي للحياة يرجع إلى النص فيحاوره عن طريق السؤال و الجواب، فما أجابه به القرآن يأخذ به كنتيجة حصل عليها. و هدفه من ذلك هو: (ان يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح و النظرية التي بامكانه أن يستلهمها من النص، من خلال مقارنة هذا النص بما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفكار و اتجاهات). فدور المفسر في الأول دور سلبي،

(١٢) انظر: مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص ٣٩.
(١٣) انظر: الصدر محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص١١ و ١٣.

بينما في الثاني دوره حوار مع القرآن أو استنطاقه -كما سماه السيد الشهيد[١٤].

٧. إن الأسلوب الترتيبي ساعد كثيرا في وجود التناقضات و التضارب المؤلم في التفسير، حيث أدى إلى أن تجد كل فرقة ما يتلائم مع أفكارها و اعتقاداتها؛ سواء كانت على حق أم على باطل، فغالبا مَّا ينجرُّ هذا إلى تأسيس مذهب أوعقيدة شاذة فيدعو صاحبها الناس إليها. و أمَّا الموضوعي فمن أهم وظائفه حلُّ التناقضات المتوهَّمة بين الآيات، و كشف الإرتباط والتناسب بينها. (و قد أدت حالة التناثر و نزعة الاتجاه التجزيئي الى ظهور التناقضات المذهبية العديدة في الحياة الاسلامية، إذ كان يكفي أن يجد هذا المفسر او ذاك آية تبرر مذهبه لكي يعلن عنه و يجمع حوله الانصار و الاشياع كما وقع في كثير من المسائل الكلامية كمسألة الجبر و التفويض و الاختيار مثلا)[١٥].

٨. قلة التطور و تعويق الفهم الدقيق و العميق للقرآن الكريم، حيث تظل معاني الآيات متناثرة و متفرقة من دون ترتيبها ترتيبا عضويا، و إخراجها من ساحة الزمان و المكان، حتى نفهم الرسالة العميقة التي يريد الإسلام إيصالها إلى المجاميع الإنسانية؛ و لكن الموضوعي بعكس ذلك تماما. و يمثِّل السيد هذا الفرق بقوله: (ان الاتجاه التوحيدي و الموضوعي في الفقه بامتداده و انتشاره ساعد بدرجة كبيرة على تطوير الفكرالفقهي و إثراء الدراسات العلمية في هذا المجال بقدر ما ساعد انتشار الاتجاه التجزيئي في التفسير على اعاقة الفكر الاسلامي القرآني عن النمو المكتمل و ساعد على اكتسابه حالة تشبه الحالات التكرارية حتى نكاد نقول ان قرونا من الزمن متراكمة مرت بعد تفاسير الطبري والرازي والشيخ الطوسي، لم يحقق فيها الفكر الاسلامي مكاسب حقيقية جديدة، و ظل التفسير ثابتا لا يتغير إلا قليلا خلال تلك القرون على

(١٤) الصدر، محمد باقر، مصدر سابق، ص١٩-٢٠.
(١٥) م. ن، ص١٢.

الرغم من ألوان التغير التي حفلت بها الحياة في مختلف الميادين)[١٦].

٩. إن التفسير التجزيئي أقصى ما يستطيع الوصول إليه في الأعم الأغلب هو الحصول على معلومات متناثرة و معارف متقاطعة في آيات مختلفة، فهذه المعارف تبقى على حالها؛ و لكن التفسير الموضوعي يأتي إلى هذه المعلومات، فيجمعها، و يركبها تركيبا عضويا بوضع كل معلومة في مكانها المناسب، فيخرج المفسر بالنتيجة المطلوبة في رأي القرآن الكريم حول ذلك الموضوع. قال السيد الشهيد: (ان التفسير الموضوعي يتجاوز التفسير التجزيئي خطوة لأن التفسير التجزيئي يكتفي بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة، بينما التفسير الموضوعي، يطمح الى اكثر من ذلك يتطلع الى ما هو اوسع من ذلك، يحاول ان يستحصل اوجه الارتباط بين هذه المدلولات التفصيلية، يحاول ان يصل الى مركَّب نظري قرآني، و هذا المركَّب النظري القرآني يحتل في اطاره كل واحد من تلك المدلولات التفصيلية، موقعه المناسب، و هذا ما نسميه بلغة اليوم بالنظرية؛ يصل الى نظرية قرآنية عن النبوة، نظرية قرآنية عن المذهب الاقتصادي نظرية قرآنية عن سنن التاريخ و هكذا عن السموات و الأرض)[١٧].

١٠. النتيجة التي يحصل عليها المفسر في استعمال الأسلوب الأول هو الحصول على مجموعة كثيرة من المعلومات و المعارف المتناثرة والمتراكمة من دون الكشف عن وجوه الإرتباط بينها؛ بل تبقى هكذا غالبا. (وحصيلة تفسير تجزيئي للقرآن الكريم كله تساوي على أفضل تقدير مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظرة تجزيئية أيضا، أي أنه سوف نحصل على عدد كبير من المعارف و المدلولات القرآنية، و لكن في حالة تناثر و تراكم عددي دون أن نكتشف

(١٦) م. ن، ص١٨.

(١٧) م. ن، ص٢٧.

أوجه الارتباط، من دون أن نكتشف التركيب العضوي لهذه المجاميع من الافكار، من دون أن نحدد في نهاية المطاف نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة). بينما الثاني ينتهي إلى النتيجة و الخروج بحصيلة نعالج بها مشكلة أومشاكل كثيرة من التي لا يمكن حلها عن الطريق الأول[١٨].

هذه من أهم الفروق التي يمكن أن تلاحظ بين هذين الأسلوبين من التفسير.

١١. وكذلك افترق هذان الأسلوبان في الموضوعي بالمعنى الأول و الثاني، و اشتركا في المعنى الثالث كما نفهم ذلك في توضيحات السيد الشهيد.

يعني أن المفسر بالأسلوب الترتيبي يركز كل اهتمامه على الآية أو المقطع الذي يحاول توضيحه وتبيينه ولا علاقة له بشيء من خارج الآية أو الآيات، لكن الأسلوب الموضوعي واحد من قسميه هو أن تأتي المفسر بقضية ما؛ مثل التعددية الإجتماعية أو التخطيط الإستراتيجي العسكري أو التغذية والسلامة وغير ذلك، فيأتي إلى الآيات القرآنية ليبحث عن هذه القضية، فيسأل القرآن عن رأيه في هذه القضايا، هو المعنى الأول للموضوع.

والثاني أن المفسر بالأسلوب الموضوعي يبذل كل جهده لجمع الآيات التي ترتبط بالموضوع الذي يبحث حوله، فيرتبها بحسب النزول وبعد استعمال قواعد التفسير الموضوعي -كما ستأتي في محله- يخرج بالنتيجة النهائية منها، بينما المفسر بالترتيبي لا يأتي بآية أو آيات أخرى لتفسير آية أو مقطع ما إلا لتوضيح نفس الآية أو المقطع الذي يحاول تفسيره وتبيينه، ولا علاقة له بالنتيجة النهائية لجميع الآيات المتعلقة بموضوع الآية أو ذلك المقطع. هذا هو معنى الإفتراق بين الأسلوبين.

وأما اشتراكهما في الثالث فيعني أن كلا من الأسلوبين لا يجوز أن يفرض المفسر فيه على القرآن الكريم، وهذا حرام على الإطلاق في كليهما، ولا بد أن يكون قصد المفسر هو تبيين الحقائق الإلهية حسب علمه وفهمه لكتاب الله العزيز، لا

(١٨) م. ن، ص١١.

انتصار مذهبه وفرقته مهما أمكن. وهذا من مصاديق افتراء الكذب على الله ورسوله، فقد جاء في رواية متفق عليها بين المسلمين بأن الرسول الأكرم قال ما في معناه "من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار".

المبحث الرابع:
نواقص الأسلوبين في التفسير

الأول: التفسير الترتيبي:

من خلال ما تقدم في البحث يمكن اكتشاف بعض السلبيات لكلا الأسلوبين.

ففي الأسلوب التجزيئي نرى حصول المفسر على مجموعات كبيرة من المعارف و المدلولات القرآنية متناثرة و متراكمة من دون اكتشافه لوجوه الإتصال و الإرتباط بينها بحيث تبقى على تلك الحالة، حتى قد تؤدي إلى التحريف الفكري والعقائدي من هذا السبب.

إن هذا الأسلوب طريق طويل، ويحتاج إلى الزمن و الوقت الكثير، بحيث قد لا يبقى المفسر على قيد الحياة حتى يستطيع إكماله بنفسه. فلذلك: (إن شوط التفسير التجزيئي شوط طويل جدًّا، و هذا الشوط الطويل يحتاج إلى فترة زمنية طويلة أيضا، و لهذا لم يحظ من علماء الإسلام الأعلام إلا عددٌ محدودٌ جدًّا بهذا الشرف، شرف مرافقة الكتاب الكريم من بدايته إلى نهايته)[١٩].

وهناك ظهور التناقضات التي لها اليد الطولى في تأسيس المذاهب و الفرق الكثيرة المتضادة فيما بينها، بحيث يعتمد البعض آيات مستقلة من دون الرجوع إلى آيات أخرى في نفس الموضوع، و الآخر يستند بأخرى على خلاف ذلك؛ مع أنهم لو جمعوا تلك النصوص جنبا إلى جنب لا يقع هذا الإختلاف في كثير من المسائل.

الثاني: التفسير الموضوعي:

وفي الموضوعي أيضا فقد لاحظ العلماء فصل الآيات عن القرائن الموجودة فيما قبلها و ما بعدها، و غفلة المفسر عن السياق الدائر بين الآيات بعضها مع البعض الآخر.

وملاحظة أخرى هي: إن القيام بعملية التفسير الموضوعي بمجرد جمع الآيات المتشابهة لفظيا أو معنويا، ثم الخروج

(١٩) الأزرقي، منهج فهم القرآن عند الشهيد الصدر، ص٣٥٠.

بالنتيجة النهائية من دون توافر الشروط اللازمة و الضرورية عند المفسر بأن هذا لابد وأن يؤدي به الى التفسير بالرأي، فيكون خلافا لما هو مقرر في عملية التفسير.

ويرى بعضهم أن اختيار الموضوع من خارج النص القرآني بحيث يأتي المفسر برأيه قبل الورود في مجال التفسير و يحمل هذا الرأي على القرآن الكريم من أهم مصاديق التفسير بالرأي و من أكبر السلبيات التي قد تُرتَكَب في هذا الأسلوب[٢٠].

ومنها أيضا اكتفاء المفسر بالآيات التي جاءت بالألفاظ الواحدة و المتقاربة من دون الإلتفات إلى الآيات الأخرى التي تدخل في الموضوع نفسه و إن لم تأت بهذه الألفاظ في الظاهر؛ كما قد يحاول أخذ النتيجة من هذه الآيات من دون دقة و إعمال النظر العميق، فيقع في الخطأ، حيث يكتفي بما ليس بصحيح في عمله الذي يرمي الى الوصول إلى النتيجة المقبولة، فلذلك إن المفسر يحتاج إلى الصبر و التحمل حتى يصل إلى ما هو المطلوب من الحقائق في عمله هذا[٢١]. هذه السلبيات من أهم ما لاحظه العلماء الأعلام و المحققون في هذين الأسلوبين.

المبحث الخامس:

منهج الكتابة في الأسلوب الموضوعي

لقد أورد مصطفى مسلم كيفية جمع الآيات والبحث حولها وكيفية التقسيم والترتيب مع استخراج النتائج المطلوبة من التفسير الموضوعي، وهو ان الباحث إذا أراد أن يتطرق إلى موضوع من موضوعات القرآن الكريم، يجب أن يكون له تصور لأبعاد الموضوع، ثم يتدرج في جمع معلومات المادة من الآيات حوله حسب الخطوات والمنهج العلمي في هذه العملية، فيكون تدرُّجُه من البداية إلى النهاية تدرجا منطقيا. ونأتي بما ذكره مع تصرف قليل بالتلخيص والإضافة، وهو كما يلي:

١. اختيار العنوان للموضوع القرآني في مجال البحث، بعد تحديد معالمه و

(٢٠) الرضائي، محمد علي، دروس في المناهج التفسيرية للقرآن، ص٣١٦.

(٢١) انظر: الشيرازي، نفحات القرآن، ج١، ص١٧ -١٨.

معرفة أبعاده في الآيات القرآنية؛ يعني مطالعة الآيات ذات العلاقة بالموضوع مباشرة أو غير مباشرة وتحديدها. قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦].

٢. جمع الآيات القرآنية التي تبحث في هذا الموضوع، أو تشير إلى جانب من جوانبه. قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة ص: ٢٩].

٣. ترتيب هذه الآيات حسب ترتيب النزول؛ لأن ما أنزل بمكة كان في الأعم الأغلب يتعلق بأسس عامة غير محددة الجوانب كالأمر بالإنفاق أو الزكاة أو الإحسان بينما حددت معالم هذه التشريعات في المرحلة المدنية. قال تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

٤. دراسة تفسير هذه الآيات دراسة وافية بالرجوع إلى كتب التفسير التحليلي و التعرف على أسباب نزولها إن وجدت، و إلى دلالات الألفاظ و استعمالاتها، و الروابط بين الألفاظ في الجملة و بين الجمل في الآية و بين الآيات في المجموعة التي تتحدث عن الموضوع. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [سورة الزمر: ١٨] ويستعمل فكره وعقله في ذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾/ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٥. ثم بعد الإحاطة بمعاني الآيات مجتمعة يحاول الباحث أن يستنبط العناصر الأساسية للموضوع من خلال التوجيهات القرآنية التي أحاط بها أو استنبطها من الآيات المتعلقة بالموضوع، و للباحث أن يقدّم بعض العناصر الرئيسية على غيرها، إن وجد أن طبيعة البحث تقتضي ذلك أو أن تسلسل الأفكار المنطقي يلزم هذا التقديم أو التأخير. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[سورة محمد: ٢٤].

٦. ثم يلجأ الباحث إلى طريقة التفسير الإجمالي في عرض الأفكار في بحثه، و يحاول أن لا يقتصر على دلالة الألفاظ اللغوية بل يستشف الهدايات

القرآنية من خلال هذه النصوص، و قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٩].

كما ويحاول أن يفسّر ويشرح الآيات بالأحاديث النبوية الشريفة و يدعم كل ذلك بفهم الصحابة رضي الله عنهم لنصوص آي الذكر الحكيم. و يوجّه و يعلّل و يشرح و يناقش في ضوء التوجيهات القرآنية، و إن وجد ما يوهم التناقض بين بعض الآيات التي تناولت الموضوع فلا بد من إزالة هذا الوهم، و إبراز الحكمة الإلهية في وجود مثل هذه النصوص. قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [سورة النساء: ٨٢].

وفي مذهب أهل البيت عليهم السلام لا بد من الرجوع إلى العترة الطاهرة والتي هي عدل القرآن، حيث أوجب الله علينا اتباعهم بحكمته اللامتناهية. قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل: ٤٣] وهم المصداق الحقيقي لهذه الآية، وكذلك جاء في رواية متواترةحيث نقل لك من الشيعة والسنة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ألا و هما الخليفتان من بعدي و لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض"(٢٢). فقد جعلهما الرسول صلى الله عليه وآله شيئين متلازمين؛ بل كل واحد منهما مكمل للآخر، ولا يمكن فهم القرآن بدون الرجوع إلى العترة، كما لايمكن معرفتهم بدون الرجوع إليه.

فعليه يجب تقديم المأثور عن الأئمة الإثني عشر على جميع أقوال ما عدا السنة النبوية فهم المفسرون الحقيقيون لها، وقولهم حجة على الناس أجمعين، ولا دليل لأحد في مخالفتهم، كما هو واضح في النصوص الدينية.

٧. يجب عليه الالتزام بمنهج البحث العلمي عند ما يضع مخطط البحث للموضوع، و قد يفرض الموضوع طبيعة المنهج و الخطة التي سيجري البحث من خلالها. فإن كان الموضوع

(٢٢) الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت١١٠٤هـ. ق)، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، ج٢، ص٧٢.

متشعب المباحث و المجالات، لا بد عندئذ من وضع تمهيد يبين الباحث فيه منهجه في تناول الموضوع.

٨. و يجب أن يكون الهدف الأساسي في خوضه لهذا العمل الجبار هو:

أ. إبراز حقائق القرآن الكريم، وعرضها بشكل لافت للنظر مع ذكر حكمةالتشريع و جماله و وفائه بحاجات البشر و ملاءمته للفطرة السليمة و إطلاقه للطاقات الإيجابية في الإنسان.

ب. عرض تلك الحقائق بأسلوب مشرق عذب بذكر الأفكار متسلسلة آخذة برقاب بعضها البعض ملبّية لاستشراف نفس القارئ، مجيبة عن استفساراته المتوقعة، و ذلك باتباع الأسلوب البياني الصحيح الذي يفهمه أهل عصره، متجنبا الألفاظ الغريبة المهجورة و أساليب السجع المتكلّفة[٢٣].

(٢٣) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص٣٧-٣٩ مع تصرف فيه.

نتيجة البحث

مما تقدم من البحث نستطيع الخروج بهذه النتيجة؛ و هي وجود الفرق الواضح بين أسلوب التفسير الترتيبي و أسلوب التفسير الموضوعي من جميع النواحي إلا الأدوات التي يلزم بها كلا من الأسلوبين و الشروط التي يجب على المفسر أن يتسلح بها في كليهما، بحيث يعتبر عدمها خروجاً عن الجادة السوية في التعامل مع النصوص الإلهية المقدسة، فيكون صاحبها من مصاديق المفسرين بالرأي المنهي عنه و القول على الله بغير علم كما جاء في الكتاب الكريم و الروايات عن الرسول الأكرمﷺ و الأئمة المعصومين عليهم أفضل الصلاة و أتم التسليم، ولكل من الأسلوبين بعض الآفات التي يتخلص المفسر منها عبر استعمال المنهج الصحيح المعتبر في العملية التفسيرية. والله الموفق للصواب وهو خير ناصر ومعين.

مصادر البحث

١. الأزرقي، أحمد زبون، معاصر، منهج فهم القرآن عند الشهيد الصدر، مراجعة أحمد سالم العتابي و أسعد

التميمي، منشورات المحبين، طبعة الثانية، السنة١٤٣٢هـ مطبعة الكوثر، مركز الهدف للدراسات، قم المقدسة، إيران.

٢. الحكيم، السيد محمد باقر (ت١٤٢٤هـ)، علوم القرآن، الطبعة الثالثة، السنة١٤١٧هـ، مجمع الفكر الإسلامي، قم المقدسة، إيران.

٣. الرضائي الإصفهاني، محمد علي، معاصر، المناهج و الإتجاهات التفسيرية للقرآن، تعريب: قاسم البيضاني، الطبعة الأولى، السنة ١٤٢٦هـ، طبعة صدف، منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم المقدسة، إيران.

٤. السبحاني، الشيخ جعفر، معاصر، مفاهيم القرآن.

٥. الشريعت الموسوي، السيد مصطفى، العسس في تفسير سورة عبس، الطبعة الأولى، السنة١٤١٧هـ، مطبعة إسماعيليان، منشورات دار التفسير (إسماعيليان)، قم المقدسة، إيران.

٦. الشيرازي، ناصر مكارم، معصر، نفحات القرآن، الطبعة الثانية، السنة١٤٢١هـ، مطبعة سليمان زاده، منشورات الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قم المقدسة، إيران.

٧. الصدر، السيد محمد باقر (ت ١٤٠٠هـ)، المدرسة القرآنية: التفسير الموضوعي و التفسير التجزيئي في القرآن الكريم، دار المعارف، بيروت لبنان.

٨. الكاشاني، شريف حبيب الله (القرن الثالث عشر)، تفسير ست سور، تحقيق مؤسسة شمس الضحى الثقافية، الطبعة الأولى، السنة ١٣٨٣ش، منشورات شمس الضحى، طهران، إيران.

٩. الكاشاني، شريف حبيب الله (القرن الثالث عشر)، بوارق القهر في تفسير سورة الدهر، تحقيق مؤسسة شمس الضحى الثقافية، الطبعة الأولى، السنة ١٣٨٣ش، منشورات شمس الضحى، طهران، إيران.